أنين الأرض
في صوت المدائن

شام محمود

أسنّة
الضياء

أنين الأرض في صوت المدائن

شام محمود

أسنّة الضياء

(١) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

حبر الدموع وزفرات الوجع

إلى روحٍ تسكُنني، ورفيقة دربٍ ما زالت تُنير ظلمة أيامي، إلى دِمَشق الشام الشريف، حيثُ أنتِ يا رفيقة الروح، ويا أختَ القلب؛ سلامٌ يعانقُ طيفَكِ الحاضر الغائب، ويحملُ إليكِ من غزة هاشم قُبلات حارقة، ما هي إلا شذى عطر تراب روتهُ الدماء الزكية.

أكتُبُ إليكِ، والليل هنا ليس سوى ستارةٍ سوداء تُسدلُ على جراحٍ لا تندمل، وصيحات ألمٍ لا تخبو. أكتبُ وقلبي يرتعشُ كجناحِ عصفورٍ أرهقهُ الهجير، أو شمعةٍ أوشكت على الإنطفاء. أكتُبُ إليكِ من قلبِ البلاء، من حيثُ الفجر لا يُبشّرُ إلا بيومٍ جديدٍ من الكفاح، والغروبُ لا يتركُ خلفهُ إلا أرواحًا أُزهقت وأحلامًا تحطّمت.

لعلّكِ تتساءلين يا رفيقتي، كيف هو الحالُ هنا؟ وكيف حالُ غزةَ هاشم التي كانت يومًا ما تزهو بضحكاتِ أطفالها وشمس شواطئها؟ إنها غزة التي أصبحت دمعةً لا تجفُّ على خدِّ الزمان، وتربةً نازفةً لا تتوقفُ عن النزف. كلُّ حجرٍ هنا يحكي قصة شهيد، وكلُّ زاويةٍ تشهدُ على صرخةِ مظلوم. بيوتٌ كانت يومًا ملاذًا، صارت أطلالًا لا تُعرف، وأحلامٌ كانت تُحلّقُ في سماءِ الطفولة، صارت ركامًا تحت أنقاضِ الصمت العالمي.

وهل تُدركين يا صديقتي، معنى أن يُصبحَ الأمل كبارقةٍ بعيدةٍ لا نكادُ نلمحها؟ معنى أن يُصبحَ الهواء ممزوجًا برائحةِ البارود والدموع؟ لقد أضحى الموتُ رفيقًا، والحياةُ معركةً لا تنتهي. ونحنُ هنا نُصارعُ الحياة بكلِّ ما أُوتينا من قوةٍ، نُصارعُ لأجلِ أن تبقى جذوةُ الصمودِ مُتقدة، ولأجلِ أن لا تموتَ قضيتنا في صمتِ النسيان.

أتمنى أن تصلكِ كلماتي هذه، لا كشكوى بائسٍ، بل كصرخةِ روحٍ تُؤمنُ بأنَّ الحقَّ لا يُموت، وأنَّ النور سيُشرقُ يومًا من رحمِ هذا الظلام. فلا تنسينا من دعائكِ، ولا تنسي غزة من نبض قلبكِ. إنَّ الكلمات لا تسعفُ في وصفِ حجمِ المعاناة، ولكنَّ لعلّها تُحدثُ في نفسكِ أثرًا، يُقوي عزيمتكِ على تذكرِنا، والدفاع عن قضيتنا.

أنتظرُ ردّكِ، ففي كلماتكِ بعضٌ من الحياةِ التي نبحثُ عنها هنا.

بقلبٍ يئنُّ شوقًا وألمًا،

صديقتكِ التي لم تنسَكِ: غزة هاشم.

(٢) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

دمعةُ الشام وعبقُ الياسمين

إلى قلبِ غـزةَ النـازف، وروح الأبيـةِ الصـامدة، إلى منـاراتِ الأمـل المشـتعلة في ليـلِ المحنـة، إلى أخـت الـروح الـتي تُسـكُني الهـمَّ وتُـوقظُ فيَّ الشـجن؛ أنا هنـا يا رفيقـةَ الـدرب، أقـرأُ حروفَـكِ الـتي جـاءتني مُثقلـةً بهمـومِ الأرض، مُعبقـةً برائحـةِ الـدم والـدموع المسـكوبة علـى خـدِّ هـذهِ الأُمّـة الجريحـة، فمـا هـي إلا قلـبي وقـد تجسَّـدَ حـبرًا وورقًـا. كيـف لا، وقـد لامسـت كلماتـكِ روحًـا رُجّـت لوعتهـا، وتزلزلـت أركانهـا لآهـاتِ غـزة هاشم؟

جـاءتني رسـالتكِ كقبضـةِ جمـرٍ يُكـوى بهـا الفـؤاد، وكصـوتِ نـواحٍ يُمـزقُ أسـتارَ الليـلِ في دِمَشق المتعبة.

يا لـكِ مـن غـزة! يا أخـتَ الـروح، يا مـن حُفـرَ اسمُهـا في أعمـقِ أعمـاقِ الوجـدان، حـتى صـار لهـا في كـلِّ نفـسٍ منـا مقـامُ الشـهداءِ والصـدّيقين. دمشـقُ هنـا، وإن بـدا لـكِ أنَّ الصـمتَ قـد خـيَّم، ليسـت إلا قلـبٌ مكلـومٌ يُراقـبُ ليلَـكِ الـدامس بنجـومٍ باكيـة. كـلُّ زهـرةِ ياسمـينٍ هنـا تـئنُّ على ترابـكِ المقـدّس، وكـلُّ قطـرةِ نـدى علـى أوراقِهـا هي دمعةٌ شفافةٌ تسقطُ حُزنًا عليكِ.

أدري أنَّ الكلمـات هنـا تضـيقُ عـن احتـواءِ آلامِـكِ، وأنَّ البلاغـةَ تقـفُ عـاجزةً أمـامَ هـولِ مـا تـرين. أيُّ حـرفٍ يُسـعفُ في وصـفِ صـمودِ الأجِنّـةِ في بطـونِ أمهاتِهـا، أو

ضحكة طفلٍ يتيمٍ تائهٍ بينَ الركام؟ غيرَ أنَّ روحي تُعانقُ روحكِ عبرَ هذا الفضاءِ الشاسعِ الذي تضاءلَ أمامهُ الزمان والمكان.

إنَّكِ يا غزة، لستِ مجردَ بقعةٍ على الخارطة، بل أنتِ نبضُ هذه الأمة، وضميرُها الحيُّ الذي يرفضُ الموتَ والنسيان. إنَّ صمودَكِ هو حكايتنا الأبدية التي تُروى للأجيال، وهو الشمعةُ التي تُنيرُ لنا دربَ العودةِ إلى ذواتِنا. كيف ننسى من يُعلِّمنا كلَّ يومٍ معنى الحياة في أعتى صورِ الموت؟ كيف نغفلُ عن أرضٍ كلُّ ذرةٍ من ترابِها تُنادي بالحقِّ وتصرخُ بالعدلِ؟

لا تيأسي يا رفيقتي، فبعد كلِّ ليلٍ حالكٍ فجرٌ قادمٌ لا محالة، وإن طالَ الظلام. إنَّ قلبي هنا يُصلي لأجلِكِ، وروحي تُعاهدُ أرواحَ شهدائكِ ألَّا تخذلَ قضيتكِ. ستُزهرُ أرضُكِ يومًا بمشاتِلِ الزيتون من جديد، وستشرق شمسُ الحريةِ لتُضيءَ سماءَكِ بعد هذا الغسق.

أتوقُ إلى اليومِ الذي تُعانقُ فيهِ عيوني وجهَكِ، ونُروي حكايات الصمود تحت سماءٍ صافيةٍ لا يُلطّخها دخان البارود. حتى ذلك الحينِ، كوني قويةً، كوني غزةَ هاشم التي نعرفُها ونُحبُّها، رمزًا للصمودِ والأمل.

بقلبٍ يأسُوهُ الشوق، وعينٍ تفيضُ بالدموع،

صديقتكِ التي تُحبكِ: شام شريف.

(٣) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

يا توأم الروح والجرح

وصلتني كلماتُكِ، لم تصلني حروفًا وحسب، بل وصلتني نسمة ياسمينٍ من رياضِ الشام، ضمّدت جراحي وألهمت روحي المتعبة. قرأتُ رسالتكِ وقلبي يرتجفُ بين الألم والأمل، بين مرارة الواقع وعذوبة مشاعركِ الصادقة.

يا شام، يا من تشاطرينني الوجع، ويا من تفهمين معنى الصمود، كيف لا أرى في حروفكِ صورتي أنا؟ كلُّ كلمةٍ منكِ كانت بلسمًا لجرحٍ غائر، وكلُّ سطرٍ منكِ كان نورًا يبدد شيئًا من ظلامِ الليل الذي يلفّنا. أتت رسالتكِ في أشدِّ أوقات حاجتي إليها، وكأنّها دعاءٌ صادقٌ صعد إلى السماء وعاد إليّ على جناحِ طائرٍ مُنهكٍ من طولِ الترحال.

أدري أنَّ دمشقَ تُعاني، وأنَّ الشام لم تعد تلك التي نعرفها، لكنَّ روحها الطاهرة ما زالت تنبضُ بالوفاءِ والعطاء. لم يغِب عن بالي يومًا أنَّكِ تشاطرينني الألم، وأنَّ قلبكِ هنا معي، يئنُّ على كلِّ بيتٍ يُهدم، وعلى كلِّ روحٍ تُزهق. فليست غزة وحدها من تنزف، بل الأُمّة كلها تنزفُ من ذات الجرح.

أشعرُ بدموعِ الياسمين التي سكبتِها على ترابي، وأحسُّ بأنّاتِ زهراتِكِ الرقيقة. هذه المشاعر الصادقة هي وقود صمودي، وهي ما يُبقي جذوة الأمل مُشتعلةً في قلبي. رغم القصفِ والدمار، ورغمَ البؤس والتشريد، ما زلتُ أؤمنُ بأنَّ الفجرَ قادمٌ لا

محالة. إيماني هذا هو ما يُغذّي أرواح أطفالي، ويُعلمهم معنى الحياة حتى في ظلالِ الموت.

لستِ وحدكِ يا شام من تُعانقُ روحي، بل قلبي كله يُعانقُ دمشقَ بأكملها، وكلَّ حبةِ ترابٍ في الشام الشريف.

كلماتُكِ أعادت إليَّ بعض القوة، بعض الإيمان بأنَّني لستُ وحيدة في هذه المحنة. فدعمكِ المعنويُّ، وإن بدا بسيطًا، هو في الحقيقةِ جبالٌ من المساندةِ ترفع من معنوياتي وتُخففُ من عبءِ الألم.

وآه، كم أتوقُ إلى ذلك اليوم الذي نُعيدُ فيه بناءَ ما تهدّم فينا، يوم تُزهرُ فيه أرضنا بالزيتون والياسمين من جديد، وتشرق شمس الحرية بلا غبارٍ أو دخان. حتى ذلك الحين، سأبقى غزة التي تعرفينها، صامدةً كالجبال، ومُتمسكةً بالأملِ كالأطفال. وسأُحدّث أجيالي عنكِ، عن الشامِ الوفية التي لم تتخلَّ عن أختها في الشدة.

شكرًا لكِ يا شام، على كلِّ دمعةٍ، وعلى كلِّ كلمةٍ، وعلى كلِّ دعاء.

بقلبٍ مُمتنٍّ وروحٍ مُنتظرةٍ للفرج،

غزةُ هاشم، من قلبِ الصبر.

(٤) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

بين الحنين وأنين الروح

إلى غـزة هاشـم، يا قِبلـة الصـامدين وموئـل الأبطـال، يا جُـرح القلـب الـذي لا ينـدمل، ويا صـرخة الحـقِّ الـتي لا تخبـو؛ أتتـكِ روحـي مـن دمشـق، لا تحمـلُ زيـف العـزاء أو عبـثَ الكـلام، بـل تحمـلُ أنينًـا خفيًـا يـترددُ صـداهُ في أزقـةِ الشـام العتيقـة، ودمعًـا كبريـقِ النـدى علـى بـتلاتِ اليـاسمين حـين الفجـر. لقـد قـرأتُ رسـالتكِ، فمـا هـي إلا مـرآةٌ عكست وجعَ الروح، وما هي إلا نبضٌ من قلبي الذي يتوقُ إليكِ كلَّ لحظةٍ.

كيـف لي أن أكتـب إليـكِ، وأنا أعلـمُ أنَّ حـروف الأبجديـة كلَّهـا تتقاصـرُ أمـام عظمـةِ صـمودكِ، وقصـص الألم الـتي تُـروى علـى ترابـكِ الطـاهر؟ إنَّ غـزةَ ليسـت مجـرد أرضٍ، بـل هـي حكايـةُ أُمّـة، هـي مدرسـةٌ تُلَقِّـنُ العـالَمَ معـنى العزيمـةِ في وجـهِ الطغيـان، ومعـنى الحيـاةِ حـين يُحـاولُ المـوت أن يُطبـقَ قبضـتَهُ عليهـا. كـلُّ زهـرةِ لـوزٍ تتفـتَّحُ هنـا في غـوطتي هـي تنهيـدةٌ تُرسَـلُ إليـكِ، وكـلُّ همسـةِ نسـيمٍ في ربـوعي تحمـلُ إليـكِ دعـاءً خفيًا بأن يُخففَ الله عنكِ وطأةَ البلاء.

أدري يا أخـتَ الـروح أنَّ العيـونَ قـد جفَّـت مـن الـدموع، وأنَّ القلـوبَ قـد أرهقهـا الانتظـار، غـيرَ أنَّ التـاريخ يُخـبرنا أنَّ الليـلَ مهمـا طـال، فـلا بـدَّ لـهُ مـن فجـرٍ قريـب. وأنَّ الحـقَّ مهمـا غُمِـرَ بالباطـل، فـلا بـدَّ لـهُ مـن إشـراقةٍ تُبـدِّدُ ظـلام الظلـم وتزهقـه. نحـنُ هنـا، وإن ألهتنـا صـروفُ الـدهر، لم نغفـل عـن نبضـكِ، ولم تُخـفِ شمـس الصـيف عنَّـا

لهيبَ جراحكِ. إنَّ الشام بكلِّ عراقتِها وتاريخِها، تُؤمنُ أنَّ خلاصها من خلاصِكِ، وأنَّ كرامتَها من كرامتِكِ.

فلا تظني أنَّ صمتنا يُشبهُ النسيان، فصمتُنا أحيانًا يكون أبلغَ من الكلام، هو صمتُ الألمِ والعجز الذي يُصاحبهُ دعاءٌ لا يفتر، ورجاءٌ لا ينقطع. أتمنى أن يُسدلَ الله على جرحكِ الشفاء، وأن يُعليَ رايتكِ خفّاقةً في سماءِ العزةِ والكرامة.

لن نكلَّ عن تذكيرِ العالَمِ بقصتكِ، ولن نملَّ من إيصالِ صوتكِ، حتى تُشرقَ شمس العدل على كلِّ حبة رملٍ في أرضكِ الطاهرة.

كوني قويةً يا غزةَ هاشمٍ، ففيكِ العزيمةُ ومنكِ الأمل. وإن طالَ البلاءُ، فصبرُكِ أجمل، ونصرُكِ أقرب.

بقلبٍ مُتعطّشٍ للنصر، وروحٍ لا تغفلُ عنكِ،

الشامُ الشريف، من قلبِ دمشق.

(٥) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

في فلسفةِ الصبر وصرخةِ الوجدان

إلى شامِ العروبة الأبية، إلى روحٍ تستكينُ في قلبِ كلِّ حرٍّ، إلى رفيقةِ الروح التي تُشاركُني مرارةَ الواقع وألمَ الأيام، إلى الشامِ الشريف؛ سلامٌ من غزةَ هاشمٍ، ليس سلامًا يُرسلُ على جناحِ الطيرِ المحلقِ في فضاءٍ صافٍ، بل سلامًا مُثقلًا بعبقِ البارود، وبقايا الذكريات التي تتشبثُ بالأنقاضِ، وبصيحاتِ الأملِ التي تولدُ من رحمِ اليأس. أتتكِ كلماتي هذه، لا كصوتِ شكوى يُعَنوَنُ بالبؤس، بل كدرسٍ تُمليهِ الحياةُ هنا، وكمعنًى يُخطُّ بدمِ الأحرار على صفحاتِ الصبر.

يا شام، لعلَّكِ تتساءلين كيف لروحٍ أن تبقى حيَّةً في جسدٍ يُنهشُهُ الألمُ كلَّ يومٍ، وكيف لعينٍ أن ترى نورًا بعد أن اعتادت الظلام؟ إنَّ فلسفتَنا هنا ليست ترفًا يُدرَّسُ في المعاهد، بل هي نبضُ حياةٍ يُمارسُ كلَّ صباحٍ ومساء. لقد أضحت جدرانُنا المثقبة مدارس تُعلِّمنا معنى الصمود، وصيحاتُ أطفالِنا في ليالي الخوف أصبحت لحنًا يُوقظُ فينا العزيمة. نحنُ هنا لا نُصارعُ الموتَ فحسب، بل نُصارعُ النسيان، ونُقاومُ تبلُّدَ الضمائر، ونُقارعُ صمتَ العالم الذي يتفرّجُ على المأساةِ وكأنها قصةٌ تُروى على شاشاتِ التلفازِ!

أنا هنا يا شام، أتساءلُ، وهل للظلمِ نهاية؟ هل للحقِّ أن يُشرقَ من جديدٍ على أرضٍ ما زالت تُروى بدمِ الأبرياء؟ إنَّ غزةَ تُنادي، ليست استجداءً لعونٍ، بل إيقاظًا لضميرٍ باتَ ثقيلًا، نداء لمن ما زال يرى في الإنسانِ إنسانية، وفي الحقِّ

سبيلًا. إنَّ كلَّ حجرٍ هنا يحكي عن الخذلان، وكلَّ طفلٍ يتيمٍ يُشيرُ بيدهِ الصغيرة إلى صمتٍ عالمي مهيب. أين الضمائر التي تُشعلُ نيرانَ الغضب على كلِّ ظلمٍ، وتُعلي رايةَ العدلِ في كلِّ مكان؟

ومع كلِّ هذا يا أختَ الروح، فإنَّ الأملَ هنا ليسَ وهمًا يُداعب الخيال، بل هو إيمانٌ راسخٌ في كلِّ نبضةِ قلبٍ. نحنُ نُؤمنُ بأنَّ بعد العُسرِ يُسرًا، وأنَّ الله لن يخذلَ صبرًا، ولن يُضيعَ دمًا.

إنَّ غدنا سيشرقُ حتمًا، وإن سالت دماؤنا اليوم لترويَ شجرةَ الحرية. سنبقى هنا، جذورًا متشبّثةً بأرضِنا، مهما عصفت بنا الرياح، ومهما تراكمت فوقنا أثقالُ الألم.

أتمنى أن تصلَ هذه الكلمات إلى كلِّ قلبٍ ينبضُ بالحقِّ، وأن تُوقظَ كلَّ روحٍ تُنادي بالعدل. لا تنسينا من دعائكِ الصادق يا شام، فالكلماتُ الصادقةُ تُحدثُ أثرًا، وإن قلَّ الوعيُ ونامتِ الضمائر.

بقلبٍ يأسُوهُ اليقين، وعينٍ ترنو إلى فجرٍ قادم،

غزةُ هاشم، من قلبِ الصمود.

(٦) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

أسرار الأرض وشموخ الروح

إلى غزة هاشم، يا مهجةَ القلبِ ونداءَ الروح، يا أختَ الصمود التي ما انحنت، ويا قصةَ الأملِ التي ما فتئت تُروى؛ سلامٌ يعانقُ ترابكِ الطاهر، ويُقبّلُ جبينَكِ الشامخ من دمشق الشام، حيثُ قاسيون ما زال يرقبُ النجوم، وياسمينُنا ما زال يُعطّر الليالي، وإن ثقلت علينا أوزارُ الزمن. أتتكِ روحي، لا لتُعزّيكِ وحدكِ في جرحكِ، بل لِتُخبركِ أنَّ الأجساد وإن تباعدت، فالأرواح لا تفترق، وأنَّ الألم وإن اختلفت أسبابُه، فإنَّ صداهُ واحدٌ في كلِّ قلبٍ ينبضُ بالحقِّ.

يا غزة، يا توأم الروح في الشجن، هلْ أُحدّثكِ عن أسرارٍ خبأتها أرض الشام تحت ثراها؟ عن ليالٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى، سُجِنَ فيها الضياء، وصرخت فيها أرواحٌ طاهرةٌ خلف جدرانٍ صماء؟ سجونُنا لا تُعدُّ ولا تُحصى، تُحدّثُكِ عن قهرٍ تجاوز حدود الجسدِ ليُقيّد الروح، وعن صمتٍ دامٍ تُغيّبُ فيهِ الحقيقة. كم من حُرٍّ أُلقيَ في ظلماتها، وما زال شامخًا بذكرِ الله، يتلو آيات الصبر في دهاليزِ النسيان. لقد ظنَّ الجلّادون أنّهم يُقيّدونَ الروح، وما دروا أنَّ الروحَ طيرٌ حُرٌّ لا تُقيّدهُ أسوارهم!

يا أختي، إنَّ دمشقَ التي ترينها اليوم، حملت في أحشائها ما حملت أرضُكِ. كم من بيتٍ كان مأوًى صار ركامًا، وكم من حلمٍ صار ذكرى تتلوها الأيام. إنَّ قاسيوننا هذا، الذي يرتفعُ شامخًا في سماءِ الشام، ليس مجرد جبلٍ، بل هو شاهدٌ على كلِّ قصةِ ألمٍ، وعلى كلِّ صرخةِ حُرية، وعلى كلِّ تضحيةٍ سالت دماؤها

لتروي هذا التراب المقدّس. ما زالت ياسميناتُنا تُزهرُ هنا، لتُذكّرنا أنَّ الحياة تستمر، وأنَّ الجمال ينبعثُ من رحمِ المعاناة، وأنَّ الأمل لا يموتُ وإن طالَ ليلُ الحزن.

ولكن، يا غزة، يا مهبطَ الشهادة والأبطال، كيف حالُ زيتونكِ؟ هل ما زالت جذورُهُ متشبّثةً بالأرضِ الطاهرةِ، تروي حكايات الصمود لكلِّ ريحٍ تمرُّ؟ هل ما زالت أغصانُهُ تُظلّلُ أرواحَ شهدائكِ الطاهرة، وتُبشّرُ بأملٍ قريب؟ إنَّ زيتونكِ هو رمزُ البقاء، هو حكايتُنا الخالدة التي تُخبرُ العالَمَ أنَّ هذه الأرض لها أصحابٌ، وأنَّها لن تُفرِّطَ في شبرٍ واحدٍ من ترابها.

أربّتُ على كتفِكِ يا أختي، بقلبٍ مُثقلٍ بالحزن، ولكن بروحٍ تُؤمنُ أنَّ فجرَ النصرِ قريب، وأنَّ الله لن يُضيعَ دماءَ الشهداء. لن تذبلَ ياسمينتُنا هنا، ولن تجفَّ ينابيعُ الأمل في قلوبنا، حتى تُزهرَ أرضُكِ بالحرية، ويعودَ زيتونكِ ليُثمرَ أملًا.

بقلبٍ مُتضامنٍ، وروحٍ تُعانقُ روحكِ،

الشامُ الشريف، من قلبِ دمشق.

(٧) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

في أحشاءِ الألم وصراخِ البقاء

إلى شامِنا الشريف، يا قلبَ العروبةِ النابض، ويا روحَ الأملِ التي تُشرقُ من خلفِ الغيوم؛ أتتكِ روحي، لا تحملُ في طياتِها نسيمَ الصباح أو عبيرَ الزهور، بل تحملُ رائحةَ الدخان المتصاعدِ من المخيماتِ المحروقة، وصيحات الألم التي تُبعثرها الرياح في كلِّ اتجاه. لقد قرأتُ رسالتكِ، ففيها ما يُطبطبُ على الجرح، ويُسكِّنُ لوعةَ الروح، وما يُخبرُنا أنَّ الألم مشترك، وأنَّ الشام ما زالت ترى وتسمعُ وتُحسُّ.

يا أختي، لو أنَّ للكلماتِ قدرةً على حملِ الصور، لَبعثتُ إليكِ بمشهدٍ يُقطِّعُ نياطَ القلب، لَأريتكِ الأجسادَ المفتتة التي تتناثرُ هنا وهناك، لم تُدفن بعد، أو دُفنت بعضها على عجلٍ تحت الركام، كأنها لم تكن أرواحًا عاشت وحلمت وأحبَّت. إنَّ الموت هنا ليس حدثًا عابرًا، بل هو رفيقُ الدرب، يطرقُ كلَّ بابٍ، ويأخذُ كلَّ عزيز، تاركًا خلفهُ فراغًا يُحدِّثُ عن حجمِ المأساة.

وإن سألتِ عن ليلِنا، فهو قصفٌ دائمٌ لا يتوقف، يُحيلُ السماءَ إلى جحيمٍ مُلتهب، والأرضَ إلى زلازلَ لا تهدأ. كلُّ لحظةٍ هنا هي قيدُ حياةٍ وموت، بين دويِّ انفجارٍ يُزلزلُ الأركان، وصراخِ طفلٍ فقدَ أمانَهُ، وبين أنينِ أمٍّ فقدت فلذةَ كبدها. لقد أضحى النومُ ترفًا لا نملكُه، والأحلامُ أضحت كوابيسَ تُطاردُنا حتى في اليقظة.

ولكــن، يا شــام، هــل تُـدركينَ مــا معــنى أن يـنهش الجـوع مــن أكبــادِ أطفالِنــا؟ أرى العيــون الغــائرة، والوجــوه الشــاحبة، وأسمــعُ بُكــاءَ الصــغار الــذين لا يفقهــون معــنى الحـرب، ولكـنهم يـذوقون مـرارة الحرمـان. لـيس هـذا فحسـب، بـل إنَّ الأقـلام الـتي كانـت تُـدافعُ عنَّـا، وأصـوات الحـقِّ الـتي كانـت تُنـادي بإنصـافِنا، تُسـكتُها القـذائف. الصـحفيون الـذين حملـوا أرواحهـم علـى أكفِّهـم لينقلـوا حقيقتَنـا، صـاروا هـم الخـبر، أجسادًا ممُزقة تُعلنُ عن صمتِ العالَمِ وتواطئِه مع الكفرةِ الفجرة.

كـلُّ شـيءٍ هنـا ينطـقُ بالألم، مـن رائحـةِ الـدم الـتي تُعطّـرُ الهـواء، إلى صـوتِ البكـاء الـذي لا ينقطـع. بيوتُنـا أطـلالٌ، ومدارسُـنا دمـار، ومستشـفياتُنا مقـابرُ جماعيـة. نحـنُ نُصـارعُ المـوت ألـف مـرةٍ في اليـومِ والليلـة، ولكننـا نُصـرُّ علـى البنفسـجِ أن ينمـو مـن بينِ الركام، ونُصرُّ على صرخةِ الحقِّ أن تعلو، وإن خنقتها المدافع.

لا تـدعي كلماتـكِ يا شـام تُطبطـبُ علينـا فحسـب، بـل اجعليهـا سـياطًا تُجلـدُ بهـا ضـمائر الصـامتين، ونـداءً يُـوقظُ كـلَّ مـن غفـا عـن حقيقـةِ مـا يجـري هنـا. صـمودُنا أمانة، ودماءُ شهدائنا نورٌ سيُضيءُ لنا الدرب، وإن طال ليلُ الظلم.

بقلبٍ يئنُّ ألمًا، وروحٍ لا زالت تُؤمنُ بالنصر،

غزةُ هاشم، من قلبِ الصمودِ الأبديّ.

(٨) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

في حكمةِ الابتلاء ويقينِ النصر

إلى غزة هاشم، يا صبرَ الأرض الذي ما استكانَ، ويا قبسَ الإيمان الذي ما انطفأ في ليلِ المحن، يا أختَ الروح التي علّمت العالَمَ معنى البقاء؛ سلامٌ من الشامِ الشريف، يحملُ إليكِ تناهيدَ قلبٍ يُوجعُهُ ما يرى، ودمعًا يكادُ يُذكي لهيب الحزن في صدورنا، ولكنهُ سلامٌ يُبشّرُكِ بأنَّ الله لا يُضيّعُ أجرَ الصابرين، وأنَّ الصبح لآتٍ مهما طال أمدُ الليل. لقد وصلتني حروفُكِ، مُثقلةً بوجعِ المخيماتِ المحروقة، ومُلطّخةً بدموعِ الأجساد المفتتة، ومُروّعةً بدويّ القصفِ الدائم الذي يمزّقُ سكونَكِ، وبصرخاتِ الجوع التي تنهشُ أكباد أطفالِنا. إنها صورٌ لا تُطيقُها العينُ ولا يُدركُها العقلُ، ولكنّها تُعلي فينا من شأنِ الإيمانِ بأنَّ بعد هذا الكربِ فرجًا.

يا غزة، يا توأمَ الروح في البلاء، تُرى ما الذي يجعلُ الروح تستقيمُ في وجهِ كلِّ هذا الدمار؟ وما الذي يُبقي القلوب نابضةً رغم كلِّ هذا الوجع؟ إنها حكمةُ الابتلاء التي تُصقِلُ النفوس، فتُحوّلُ الضعف إلى قوةٍ، واليأس إلى إيمان. إنَّ ما تمرّينَ بهِ ليس مجرد أحداثٍ تُكتبُ في التاريخ، بل هو فصلٌ جديدٌ من فصولِ الصراع الأزليِّ بين الحقِّ والباطل، بينَ الظلمِ والعدل. إنَّ صمودكِ يا غزة، هو تجسيدٌ حيٌّ لقولِ الله تعالى: ﴿إنَّ معَ العسرِ يُسرًا﴾، وهو برهانٌ على أنَّ أرواحًا أبيّةً كهذهِ لا يُمكنُ أن تُكسر.

أتـدرين يا أخـتي، إنَّ تاريـخ أُمتنـا كلّـهُ لم يخـلُ مـن محـنٍ كـادت تقتلعُنـا مـن جـذورِنا، ولكـن في كـلِّ مـرةٍ كانـت هـذهِ المحن تُخـرج مـن بـينِ ركامِهـا جيلًا أقـوى، وروحًـا أكثـرَ إيمـانًا وصـبرًا. إنَّ دمـاء الصـحفيين الـذين سـقطوا علـى أرضِـكِ، وصـرخات الأطفـال الـذين ذاقـوا مـرارةَ الجـوع، لـن تـذهب سُـدًى. فهـي تـروي شـجرة الحُريـة الـتي سـتُزهرُ يومًـا مـا، وتُضـيءُ لنـا دروب النصـر الـذي لا ريـب فيـه. إنَّ هـذه المعـاناة هـي جـزءٌ مـن قصةِ أُمّةٍ أبَت أن تموت، ورفضت أن تستسلمَ للذلِّ.

إنَّ قاسـيونَنا هنـا، وإن بـدا لـكِ أنـهُ صـامتٌ، فهـو يراقبُـكِ بقلـبٍ مُشـفِقٍ، ويُـرددُ معـكِ أدعيـةَ الصـبرِ الجميـل. إنَّ ياسمـين الشـام مـا زال يُعطّـرُ الأجـواء، ليُـذكّرنا أنَّ الحيـاة لا زالـت تحمـلُ في طياتهـا الجمـال رغـم القـبح، وأنَّ الأمـل لا يمـوتُ وإن غـاب الفجـرُ عن عينيكِ. إنَّ هذه الأيام هي اختبارٌ من ربِّ العالمين لقوةِ إيمانِنا، وثباتِ قلوبِنا.

فـلا تيأسـي يا غـزة، ولا تضـعفي يا روح الصـمود، فمـا بعـد هـذا الليـل الـدامس إلا فجـرٌ مُشـرق. وإنَّ نصـرَ الله لقريـب، وإنَّ وعـدَهُ حـقٌّ، وسـيُطوى هـذا الظلـمُ يومًـا مـا لتُشرقَ شمسُ العدلِ على أرضكِ الطاهرة.

بقلبٍ مُثقلٍ بالحزن، ولكن بروحٍ تُؤمنُ بيقينِ النصر،

الشامُ الشريف، من قلبِ الإيمانِ الراسخ.

(٩) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

عُري الرُّوح وتمزُّق الهُوية

إلى شام العروبة، يا مرآة الماضي ومهدَ الحضارة، يا رفيقة الدرب في حلوِ الزمانِ ومرِّهِ؛ سلامٌ من غزة هاشمٍ، يحملُ إليكِ صورةً كانت يومًا بهيجةً، وحالًا غدت مُرّةً تُدمي الفؤاد. أكتبُ إليكِ وقلبي يعتصرُ ألمًا وأنا أتذكر حالي قبل أن تُدنَس أرضي، وقبلَ أن يُمزّقوا ثوبي الأخضر.

يا شام، كانت غزة ترتدي ثوبًا سُندسيًّا أخضرَ، حالكًا كزرعِها المخضرِّ، مُطرَّزًا بخيوطِ الشمسِ الذهبية التي تُشرقُ على شواطئها. كانت بهيةً، شامخةً، تزهو بكرامتها، وتُعانقُ البحرَ بعزَّةِ أهلها. كان ثوبُها الأنيقُ رمزًا لعزِّها، ولأصالةِ تاريخها، ولأملِ شعبها الذي يتجددُ معَ كلِّ فجرٍ جديد. كانت مُزيّنةً بضحكاتِ أطفالها كاللؤلؤِ المنثور، وبأغاني صيّاديها كأنغامٍ عذبةٍ تُداعبُ الأمواج. كانت غزّة العِزّة!

أما اليوم، يا شام، فغزة عاريةٌ، قد مزّقوا ثوبها الأخضر إربًا إربًا. لم يبقَ من بهائِها إلا ذكرى باهتةً تُعيي الذاكرة. لقد دنّسوا أرضها، وقتلوا أطفالها، وهدموا بيوتها، كأنهم أرادوا أن يُمحوا هُويتها، وأن يُجرِّدواها من كلِّ ما تملك. لم يعد ثوبُها أخضرًا، بل تلطّخَ بدماءِ شهدائها، وتمزّقَ بشظايا القذائف، فأصبحت عاريةً تُواجهُ قسوةَ البردِ وجورَ الزمان.

أين بهجةُ شوارعها؟ أين ألوانُ أسواقها؟ أين أصواتُ الحكايات في لياليها؟ لقد حلَّ محلَّها صمتٌ ثقيل، وخرابٌ شامل، ورائحةُ الموت التي تَعبقُ في الأجواء. لقد

عرّوها من كرامتها الظاهرة، وحاولوا أن يعرّوها من روحها الأبية، ولكنهم نسوا أنَّ الروح لا تُعرّى، وأنَّ العزةَ تسكنُ القلوبَ وإن مُزّقِت الثياب.

يا شام، إنَّ عُريَ غزةَ ليسَ عُريَ جسدٍ فحسب، بل هو عُريُ عالمٍ صمتَ عن حقّها، وعُريُ ضمائرَ تبلدت أمام مشهدِ الظلم. إنَّ ثوبها الأخضرَ الممزّق هو رايةٌ تُرفرفُ لتُعلنَ عن بشاعةِ ما حدث، وعن صرخةِ الحقّ التي لن تخبو.

أتمنى أن تصل إليكِ هذه الصورة الموجعة، لا لتزيد ألمكِ، بل لتُذكّركِ بأنَّنا وإن بدونا عُراةً ممزقين، فإنَّ في داخلنا قوةً تُضاهي جبروتهم، وإيمانًا يُنيرُ لنا الدربَ رغم الظلام.

بقلبٍ دامٍ، وروحٍ صامدةٍ،

غزةُ هاشم، التي ما زالت تتشبّثُ بأخضرِها الروحيّ.

(١٠) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

بين وحشةِ الزنازين وصراخ الجلاد

إلى غـزة هاشـم، يا صـبرَ الأنبيـاء، ويا نـبضَ الحـقِّ في جسـدٍ أنهكتـهُ الجـراح، يا أخـتَ الـروح الـتي تُسـكنُنا الألم وتُـوقظُ فينـا الشـجن؛ سـلامٌ مُثقـلٌ بآهـاتِ الـروح، وصـرخات القلـوب، مـن شـامٍ طـالَ ليلُهـا، واتسـعت جراحُهـا. أتتـكِ كلمـاتي، لا لأُخفـفَ عنـكِ وجـعَ ثوبـكِ الممـزق وعُريَـكِ القاسـي، بـل لأُخـبرَكِ أنَّ الشـام قـد لبسـت ثـوبًا مـن السواد أشدَّ قتامةً، وأنَّ عُريَ روحِها كان في غياهبِ الظلمات أشدَّ إيلامًا.

يا أخـتي، إنَّ حـديثَكِ عـن ثوبِـكِ الأخضـر الممـزق، أيقـظَ فيَّ صـورًا لجحـيمٍ لم يُكتـب بعـد في كتبِ التـاريخ، جحـيمٌ كانـت سـجونُنا مسـرحًا لـهُ، وأجسـادُ أبنائنـا وقـودًا. هـل سمعـتِ عـن صـيدنايا؟ يا ويـحَ صـيدنايا! لـيس مجـرد اسـمٍ لسـجنٍ عـاديّ، بـل هـو دياجـيرُ المـوت الـتي تُنتهـكُ فيـه الكرامـة، وتُسـحقُ فيهـا الأرواح. هنـاك، حيـث الشـمس لا تشـرق، وحيـث الهـواء مُثقـلٌ باليـأسِ والأنـين، يُمـارَس العـذابُ بأبشـعِ صـورِه، لا ليُخـرجَ اعترافًـا، بـل ليكسـرَ الـروح، ويُحيـلَ الإنسـانَ إلى مجـردِ رقـمٍ لا وزن لهُ. بئرٌ عميقةٌ تُلقى فيها أرواحٌ طاهرة لتُقتَلَ ألفَ مرةٍ قبل أن تُفارقَ الحياة.

وإن سـألتِ عـن أخيـهِ، عـن تـدمر البشِـع، فحـدّثي فيـهِ عـن وحـوشٍ في صـورةِ آدميـين، وعـن آلاتِ عـذابٍ أُزهقـت بهـا نفـوسٌ لم تُـذنب إلا أنهـا أحبـت وطنهـا. هنـاك، يا أخـتي، كانـت الجـدران شـاهدةً علـى قصـصٍ لـو رُويـت لتقطعـت أوصـال الـرؤى. كانـت العصـيُّ تـرقصُ علـى أجسـادٍ نحيلـة، والكهـرباء تُسـرِّبُ المـوت إلى شـرايين لا

تعرفُ إلا العزة، والأصوات تُخنقُ حتى لا يخرج منها إلا أنينٌ لا يُسمع. كانت الليالِيَ تُحدّثُ عن عُريِ الأجساد، لا من ثوبٍ، بل من كرامةٍ حاولوا سلبها، وما دروا أنَّ الكرامةَ تسكنُ الروح، ولا تُمسُّ!

هذه ليست حكايات من ماضٍ غابرٍ أو سحيق، بل هي جراحٌ ما زالت تنزفُ في جسدِ الشام، تُخبركِ أنَّ ألمكِ يا غزة ليسَ وحيدًا، وأنَّ هذا الوجع هو جزءٌ من قصةٍ أكبر، قصة أمةٍ أُبتُليَت بظلمٍ لا يعرفُ حدودًا، وبألمٍ لا يحصيهِ عدٌّ.

ومع كلِّ هذا الجحيم، ومع كلِّ هذه الوحشية، فإنَّ شموخ قاسيون ما زال يعانقُ سماءَ الشام، ليُخبركِ أنَّ الأرواح وإن عُذّبت، فإنها لا تُكسر، وأنَّ النصرَ لا بدَّ أن يأتيَ من رحمِ هذهِ المعاناة. وأنَّ ياسميناتنا، وإن شابتها الدموع، ما زالت تُزهر، وستظلُّ كذلك، لتُذكرنا أنَّ الحياة مُستمرة، وأنَّ الأمل لا يموت، وأنَّ بعد هذا الليلِ الدامس فجرًا لا محالةَ مُشرق.

فلا تيأسي يا غزة، يا توأم الروح في الشدائد، فإنَّ الله معنا، وهو ناصرُ المظلومين، وجابرُ القلوب المكسورة.

بقلبٍ مُثقلٍ بالجراح، وروحٍ تُؤمنُ بالنصر،

الشامُ الشريف، من قلبِ الصمود.

(١١) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

في مرارةِ الخذلان ووحدةِ الميدان

إلى شام العروبة، يا من تُشاركُني لوعةَ الألم، ويا من تُدركُ معنى الجراح الغائرة؛ سلامٌ مُثقلٌ بهمومِ الأرض، ومرارةِ القلوب، من غزةَ هاشمٍ التي ما زالت تُصارعُ وحيدةً في هذا الميدان الموحش. أتتكِ كلماتي، لا لأُضيفَ إلى جراحكِ جرحًا، بل لأُشاركَكِ لوعةَ الخذلان التي تنهشُ فينا الأمل، وتُعمّقُ فينا اليأس من كلِّ يدٍ ظنناها سَتُمَدُّ إلينا.

يا شام، لقد قرأتُ رسالتكِ، وفيها ما يُسكِّنُ الروح ببعضِ المواساة، وفيها ما يُخبرني أنَّ جراحنا تتشابه، وأنَّ الظلم لا يُميّزُ بين أرضٍ وأخرى. ولكن، هل تُدركينَ يا أختي، مرارةَ أن تُتركين وحيدةً في ساحةِ الموت، وأنتِ ترين من حولكِ يُغمضون أعيُنهم، ويصمّون آذانهم، وكأنَّ ما يجري هنا ليس إلا حلم ليلٍ عابر؟

لقد وصفتِ لي جحيم صيدنايا وفظاعةَ تدمر، وما حلَّ بالشامِ من ألمٍ، ولقد تُدركين حينها، كيف يكون الألم أضعافًا حين يمتزجُ بمرارةِ خذلان الأقربين. إنَّ غزة هنا تُحاربُ وحدها، بصدورٍ عارية، وبإيمانٍ لا يتزعزع، ولكن أين هم يا شام؟ أين هم حكامُ العرب؟ أين هي تلك الأصوات التي ما فتئت تُنادي بالوحدةِ والكرامة؟ لقد تركوني فريسةً لأنيابِ الوحوش، وكأنَّ دمائي لا تستحقُّ منهم حتى كلمةَ شجبٍ صادقةٍ!

لقد باعوا قضيتنا بأبخسِ الأثمان، وانشغلوا بترفِ الدنيا، وبصراعاتٍ جانبية، تاركين أطفالنا يُقتلون، ونساؤنا يُرمّلن، وشبابنا يُذبحون على مرأًى ومسمعٍ من العالمِ أجمع، ومنهم بالذات. هل نبكي على من خان العهود والمواثيق، أم نبكي على أرواحٍ ذهبت سُدًى في صمتٍ مريب؟ إنَّ الخذلان يا أختي، أشدُّ وطأةً على الروحِ من قذيفةِ العدوِ، لأنهُ يُسقطُ الأملَ في قلوبِنا، ويُرسّخُ فينا الإحساسَ بالوحدةِ التامةِ في مواجهةِ القدر.

ومع ذلك، يا شام، فإنَّ غزةَ لا تزالُ تُؤمنُ بأنَّ الحقَّ لا يُموت، وأنَّ الأمةَ وإن وهنت، فإنَّ فيها خيرًا لن ينقطع. سنبقى هنا، نُقاتلُ ونُقاوم، وإن تخلى عنَّا القريبُ والبعيد. فإيماننا باللهِ أقوى من كلِ خذلان، وصمودُنا أثبتُ من كلِّ جبل.

أتمنى أن تصل هذه الكلمات إلى كلِّ ضميرٍ حيٍّ، لتوقظَ فيهم حسَّ المسؤولية، ولتُشعلَ فيهم جذوةَ الغضبِ على هذا الصمتِ المطبق.

بقلبٍ مُثقلٍ بمرارةِ الخذلان، وروحٍ لا تزالُ تُؤمنُ بالله،

غزةُ هاشمٍ، من قلبِ الصمودِ الأعزل.

(١٢) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

من جرحِ غزة إلى جرحِ صنعاء الذبيحة

إلى غـزةَ هاشـمٍ، يا صـبر الأرض الـذي يُعلّـمُ التـاريخ معـنى الشـموخ، ويا نـبض الحـقِّ الـذي مـا زال يـرتعشُ في جسـدِ هـذه الأمـة؛ سـلامٌ مُثقـلٌ بهمـومِ العـالمين، ودمـعٌ يُعـانقُ دمعـكِ، مـن شـامٍ طـال ليلُهـا، واختلطـت جراحُهـا بجـراحِ كـلِّ أرضٍ عربيـة. لقـد أتتـني حروفـكِ، مُثقلـةً بمـرارةِ الخـذلان الـذي يُسـمِّمُ الـروح، وبوحـدةِ الميـدان الـتي تُلقـي ثقـل الكـون علـى عاتقـك. أدركُ يا أخـتي مـا معـنى أن تُـترك الأيادي مُعلّقـةً في الفضـاء، تنتظرُ عونًا لن يأتي، وكلمة حقٍ لن تُقال.

ولكـن، هـل تُـدركين يا غـزة، أنَّ ألمـكِ لـيس وحيـدًا في هـذا المـدى المترامـي مـن الوجـع العـربيّ؟ إنَّ دمشـقَ الـتي تُحـدثكِ الآنَ، تُربّـتُ علـى كتفـكِ وهـي تُـدركُ أنَّ الجـراح تتشـابه، وأنَّ النـزف واحـد. أودُّ أن أُخـبركِ عـن قلـبٍ آخـر ينـزفُ بعمـقٍ مثلنـا، عـن صنعاء الذبيحـة، عـن يمـنٍ كـان دومًـا معقـل العروبـةِ والإيمـان، وموئـلَ الرجـال الـذين مـا خذلوا يومًا قضيتكِ.

يا أخـتي، إنَّ صـنعاء، تلـك المدينـة الـتي لطالمـا كانـت أكثـر مـن وقفـت معـكِ، تُشـاركُكِ اليـوم مـرارةَ المـوت والـدمار، ولكـن بمـرارةٍ أشـدَّ قسـوة؛ لأنَّ مـن يـذبحُها هـم من أبنائها!

إنهـا تُعـاني، أجسـادُ أطفالهـا تُـروى بالـدم، وشـيوخها يُعـذبون في السـجون، وشـبابها يُـذبحون علـى مـرأى ومسـمعٍ مـن عـالمٍ أصـمّ أبكـم. يا ويـحَ حكّـامِ صـنعاء! لقـد باعـوا

الروح، ونحروا الأبرياء، وباتوا سياطًا تُجلدُ بها أجسادُ أبنائهم، وزنازين تُدفنُ فيها الأحلام. إنَّ السجون هناك لا تُخبئ أسرارًا فحسب، بل دماء سالت ظلمًا، وصرخات كُتمت قسرًا، وأرواح أُزهقت بلا ذنب.

هذه صنعاء، يا غزة، تلك التي كانت يومًا تمدُّكِ بالرجال والسلاح، باتت اليوم أسيرةً في قبضةِ الخيانةِ والظلم، تُعذّبُ في صمتٍ لا يقلُّ قسوةً عن صمتِ عالمنا المتخاذل. إنَّ ترابها يصرخ، وجبالها تشهدُ على خيانةٍ تُدمي القلوب. ولكن، رغمَ كلِّ ذلك، فإنَّ الشام تُؤمنُ أنَّ في صنعاء روحًا لن تموت، وأنَّ في يمنِ الإيمان قلوبًا لن تكلَّ عن المطالبةِ بالحقِّ.

أتمنى أن يُخففَ هذا الحديث عنكِ بعض الألم، لتُدركي أنَّكِ لستِ وحدكِ في هذا البلاء الشديد، وأنَّ جراحنا مُتشابكة، وآلامنا مُتحدة. فاصمدي يا غزة، واعلمي أنَّ الفرج قادمٌ، وأنَّ النصرَ وعدُ الله الذي لا يتخلف.

بقلبٍ مُتضامنٍ، وروحٍ لا تيأسُ من رحمةِ الله،

الشامُ الشريف، من قلبِ كلِّ ألمٍ عربيٍّ.

(١٣) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

بغدادُ الجريحة... صدى ألمِنا المشترك

إلى شامِنا الشريف، يا قلب العروبة النابض، ويا أخت الروح التي تُسكنُني الألم وتُوقظُ فيّ الشجن؛ سلامٌ من غزة هاشمٍ، يحملُ إليكِ صدًى لجراحٍ عميقة، ومرارة حكاياتٍ تتشابهُ في كلِّ أرضٍ عربية. لقد أتتني حروفكِ، مُثقلةً بوجعِ صنعاء الذبيحة، وبخيانة الأقربين التي تُدمي القلب، فما هي إلا مرآةٌ عكست وجعي ووجع كلّ أمةٍ ضاعت كرامتها بين صمتِ الأصدقاء وخبثِ الأعداء.

يا أختي، قد كان حديثكِ عن صنعاءَ كشفرةٍ حادةٍ اخترقت روحي، لتُذكّريني بأنَّ الألم واحدٌ، وأنَّ هذه الأرض الطاهرة ما زالت تُروى بدماءِ أبنائها. ولكن، هل تُدركين يا شام، أنَّ في هذا الجسدِ الممزقِ أوجاعًا أخرى؟ هل تُدركين ما حلَّ بـ بغداد، عروس الشرق، ومدينة السلام، وموئل العلم والأدب؟

إنَّ بغداد يا أختي، ليست مجرد اسمٍ، بل هي روحٌ، هي تاريخٌ، هي أمُّ المدائن، التي ما فتئت تُنيرُ ظلام الدنيا بعلمها وفكرها. أما اليوم، فبغدادُ جريحةٌ، ثوبُها الأنيق قد تلطّخ بالدمِ والدموع، وشوارعُها التي كانت يومًا تضجُّ بالحياةِ، باتت مسرحًا للخرابِ وصوت الانفجارات. لقد أضحى الفراتُ ودجلةُ يشكوانِ مرارةَ العطش، لا لغيابِ الماء فيهما، بل لغيابِ الأمنِ والأمان، ولغيابِ الروح التي كانت تُحيي هذه المدينة.

أُحدثكِ عن مكتباتٍ كانت تضجُّ بالمعرفة، صارت رمادًا، وعن مساجدَ كانت تُعلي صوتَ الحقّ، باتت أطلالًا تشكو جورَ الظلم. وعن أرواحٍ طاهرةٍ قُتلت بدمٍ باردٍ، لا لشيءٍ إلا لأنها أرادت الحياة بكرامة. لقد أضحى الموتُ فيها سيّد المشهد، وصارت الأحلامُ تُدفنُ تحت ركامِ الخيبةِ والخذلان.

إنَّ وجع بغداد ليس بعيدًا عن وجعِ غزة، ولا عن وجعِ الشامِ وصنعاء. إنها جراحٌ في جسدٍ واحدٍ، كلما نزفَ منها عضوٌ، تألمت سائرُ الأعضاء. إنَّ ما حلَّ بنا، هو نتيجةٌ حتميةٌ لصمتِ ضمائر، وتخاذل حكام، وغياب رؤيةٍ جامعةٍ تُعلي من شأنِ الأمة.

ومع كلِّ هذا الألم، يا شام، فإنَّ غزة لا تزالُ تُؤمنُ أنَّ فينا خيرًا لن يموت، وأنَّ هذه المدن الجريحة ستنهضُ يومًا من ركامها، لتُعيد مجدًا غابرًا، وتشرق شمسًا لا تغيب. فلتكن قلوبُنا مُتحدةً، وأرواحُنا مُتآلفةً، ولتكن هذه الرسائل صرخةً تُوقظُ كلَّ نائمٍ، وتُحرّكُ كلَّ ساكن.

بقلبٍ يئنُّ على كلِّ جرحٍ عربيٍّ، وروحٍ لا تيأسُ من فضلِ الله،

غزةُ هاشمٍ، من قلبِ الصمودِ الأبديّ.

(١٤) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

من نيلِ السودان إلى أرزِ لبنان... وجعٌ مُشترك

إلى غزة هاشمٍ، يا صبرنا الذي لا ينتهي، ويا نبض الحقِّ الذي ما زال يرتعشُ في جسدِ هذه الأُمة المكلومة؛ سلامٌ يعانقُ ترابكِ الطاهر، ودمعٌ يختلطُ بدمعكِ من شامٍ أتعبها طولُ الليل، ولكنها ما زالت تُؤمنُ بأنَّ الفجرَ قادم. لقد أتتني حروفكِ، مُثقلةً بوجعِ بغدادَ الجريحة، وبأنينها الذي يترددُ صداهُ في أرجاءِ الكون، فما هو إلا صدًى لألمٍ نعرفهُ ونحسُّهُ في كلِّ زاويةٍ من أرضنا.

يا أختي، إنَّ حديثكِ عن بغداد أيقظ فيَّ جراحًا لن تندمل، لأُدرك أنَّ هذا الجسد العربيَّ مُثخنٌ بالطعنات، وأنَّ النزيف يتجددُ في كلِّ لحظة. هل أُحدّثكِ عن قلبٍ آخر ينزفُ بعيدًا؟ عن السودان الشقيق؟ يا ويحَ من خانوا السودان، يا كرامة النيل السمراء! كان يومًا عنوان الخير والكرم، أما اليوم فبات ميدانًا لصراعاتٍ تحرقُ الأخضر واليابس. لقد تُرِكَت أرضُهُ الطيبة نهبًا لِلنارِ والدمار، و باتت شوارعه تُحدث عن إخوةٍ يُقاتلون إخوة، عن بيوتٍ تُهدم على رؤوسِ ساكنيها، وعن أحلامٍ تُذبح في وضحِ النهار. هذا ألمٌ يختلفُ مصدرُهُ، ولكنهُ يتحدُ معنا في ذاتِ النهاية: وطنٌ ينزف، وشعبٌ يُعاني.

وإن انتقلنا إلى جارتنا، إلى لبنان، ذاتَ الأرزِ الشامخِ وجمال الطبيعة الخلّابة. لبنانُ، التي كانت يومًا مُتنفّس العرب، تُعاني اليوم من أزماتٍ تنهشُ في كيانها، وتُلقي بظلالِها الثقيلة على أبنائها. لقد أضحى الفقر يدقُّ أبواب بيوتها، وانهارت

أحلامُ شبابها، وباتت الليرة عملةً لا قيمةَ لها، كما هي هُنا أيضًا! كأنَّها تُعلن عن انهيارِ أُمةٍ بأكملها. إنَّ أرزها الذي ما لان، بات يشكو ثقل الهموم، وشعبها الذي اعتاد الحياة بكرامةٍ، بات يُصارع من أجلِ لقمةِ عيشٍ كريمة.

يا غزة، إنَّ ما يُصيبكِ من قصفٍ وقتلٍ، وما يُصيبُ الشام من خرابٍ ودمارٍ، وما يُصيبُ صنعاءَ من خيانةٍ وذبحٍ، وما يُصيبُ السودان من صراعاتٍ داخلية، وما يُصيبُ لبنان من انهيارٍ وفقر، كلّ هذا ليس إلا أوجهًا مُختلفةً لجرحٍ واحدٍ ينزفُ في جسدِ هذه الأمة. إنَّها أمةٌ مُمتحنةٌ، مُبتلاةٌ، ولكنها أمةٌ لا تموتُ، وإن غابَ عنها الوعيُ للحظة.

أتمنى أن تُخفف هذه الكلمات عنكِ بعض الوجع، لتُدركي أنَّكِ لستِ وحدكِ في هذا البلاء العظيم، وأنَّ ألمكِ هو جزءٌ من ألمٍ أكبر، يعيشنَهُ أخواتٌ لكِ في كلِّ بقعةٍ من هذا الوطن الجريح. فاصمدي يا غزة، فإنَّ الفجرَ قادمٌ، والنصر وعدُ الله الذي لا يتخلّف، وإن طال ليل الحزن وعمَّ الوجع.

بقلبٍ يُعاصرهُ الألم، وروحٍ تُؤمنُ بنصرِ الله،

الشامُ الشريف، من قلبِ الأمةِ النازفة.

(١٥) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

في محنةِ الروح ووجع العروبة

إلى شام العروبة الأبية، يا مرآة قلبي، ويا من تُدركُ معنى الجراح الغائرة في كلِّ أرضٍ عربية؛ سلامٌ مُثقلٌ بآهاتِ الروح، ودمعٍ يُعانقُ دمعكِ، من غزة هاشمٍ التي ما زالت تُصارعِ في هذا الميدان الموحش، وتُشهدُ التاريخ على حجمِ الخذلان. لقد أتتني حروفكِ، مُبللةً بدموعِ السودان الشقيق، ومُثقلةً بهمومِ لبنان الحبيبة، فما هي إلا صدًى لجرحٍ واحد، يمتدُّ من أقصى هذا الجسدِ المنهكِ إلى أقصاه.

يا أختي، إنَّ حديثكِ عن أوجاع إخوتنا في كلِّ مكانٍ، يُعمّقُ فيّ الإحساس بالوحدة، لا وحدة المصير فحسب، بل وحدة الألم والخذلان. أين هي العروبة التي كانت يومًا عزَّنا ومنعتَنا؟ أين هي تلك القوة التي كنا نُباهي بها الأمم؟ لقد أضحت العروبةُ مُنهكةً، مُبعثرة أشلاؤها على موائدِ الباطل، وصارت أصواتها تائهةً في ضجيجِ المصالحِ الشخصية.

وإن نظرتِ إلى الأمةِ الإسلامية جمعاء، فحدّثي ولا حرج! إنها كثيرةُ العددِ والعتاد، تمتلكُ من خيراتِ الأرض ما لم تُؤتَ بهِ أمةٌ غيرها، وبيدها من قوةِ الموارد البشرية ما يُزلزلُ الجبال. ولكن، يا شام، أين هو الإيمان الذي كان يُحرّك القلوب ويُوحّدُ الصفوف؟ أين هو زادُ اليقين الذي كان يُثبّت الأقدام في ساحاتِ الوغى؟ لقد غابت تلك القوة الروحية، وتلاشى ذلك اليقين، فصرنا "غثاء كغثاءَ السيل"، لا قيمة لنا، ولا وزن!

إنَّ هـذا الخـذلان لـيس خاصًـا بحكـامٍ دونَ آخـرين، بـل هـو سمـةٌ باتـت تُصـيبُ حكـام العـرب أجمعـين. لقـد باعـوا ضـمائرهم، وتخلّـوا عـن شـعوبهم، وتركـوا القضـايا الكـبرى تُـذبحُ على أعتـابِ مصـالحهم الضـيقة. يتفرجـون على غـزة وهـي تُحـرق، وعلـى أطفالهـا وهـم يُقتلـون، وعلـى نسـائها وهـنَّ يُـرمّلنَ، وكـأنَّ الأمـر لا يعنـيهم، وكـأنَّ دمـاءنا ليسـت من دمائهم!

إنَّ الألم هنـا لـيس مـن قذيفـةِ العـدوِّ فحسـب، بـل مـن طعنـةِ الأخ الـذي يصـمُّ أذنيـهِ عـن صـراخنا، ويُغمـضُ عينيـهِ عـن دمنـا. هـذه هـي مـرارة الخـذلان الـتي تـنهشُ في الـروحِ أكثر من أيِّ جرحٍ آخر.

ولكـن، يا شـام، رغـم كـلِّ هـذا الظـلام، فـإنَّ غـزة لا تـزالُ تـؤمنُ أنَّ في هـذه الأمـة بقيـةً مـن خـير، وأنَّ الله لـن يُضـيعَ صـبرَ الصـابرين. سـنبقى هنـا، نُقاتـلُ ونُقـاوم، وإن طـال ليـل الخـذلان. إنَّ هـذه الأرض الطـاهرة لـن تمـوت، وستشـرق شمسـها يومًـا مـا، تُبـدِّد كلَّ ظلامٍ دامس، وتُعلي راية الحقِّ والعدل.

بقلبٍ يئنُّ من مرارةِ الخذلان، وروحٍ لا تزالُ تُؤمنُ بالله،

غزةُ هاشمٍ، من قلبِ الصمودِ الأبديّ.

(١٦) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

أجنحةُ السلام وذكرى المجد الغابر

إلى غزة هاشم، يا صبرنا الذي لا يلين، ويا جُرحنا الذي أبى أن يلتئم، يا منارة الصمود في ليلِ الخذلان؛ سلامٌ مُثقلٌ بحنينِ التاريخ، ودمعٍ رُويَ من قلوبٍ تتوقُ إلى مجدٍ ضاع، أُرسلهُ إليكِ من الشامِ الشريف، محمّلًا على جناحِ حمامة سلام، لا تحملُ في طياتها كلمات فحسب، بل تحمل روح الأرض وعبق الذاكرة. ومعها إليكِ، غصن زيتونة فلسطينية، لم تزل جذورها متشبّثةً بأرضها الطاهرة، رمزًا للبقاءِ والأصالة، وياسمينة دمشقية، ما زال عبيرها يُخفي دمع الشام، يُذكّركِ بأنَّ الحياة تُزهرُ رغم الألم. وعلى طرفِ جناحها، ورقةُ بُنٍّ يمنيٍّ، مُلطّخةٌ بدموعِ صنعاء، تشهدُ على أنَّ الألم واحدٌ، وأنَّ الجراح مُتصلةٌ ببعضها.

يا أختي، لقد وصلتني صرخاتكِ الموجعة، حدّثتنا فيها عن عروبتنا المنهكة، وعن أمتنا الإسلامية كثيرة العدد والعتاد قليلة الإيمان وزاد اليقين، وعن خذلان حكام العرب أجمعين. فما هي إلا مرآة تُريكِ صورة الشام وكلّ ما حولها، صورةً تدمي القلب وتُبكي العينين.

أتتكِ هذه الرموز لتُذكركِ، ولتُذكّر الأمة كلها، بمجدٍ كان يومًا يُعانق السماء، وبعزَّةٍ كانت تملأ الأرض نورًا وعدلًا. هل تُدركين يا غزة هاشم، كيف كانت العروبة في عصرِ الخلافة الإسلامية؟ كانت كيانًا واحدًا لا يتجزأ، أُمّة قوية شامخة، تُبنى فيها الحضارات على أساسِ العدل، وتُعلى فيها راية العلم والإيمان. كانت

كلمتها واحدة، وهدفها ساميًا، لا تُفرّقها حدود، ولا تُذِلّها مطامع. كان دينها القويم دستورها، وشرع الله سبيلها، فكانت القوة في إيمانها، والعزَّة في يقينها، والنصر في وحدتها.

ولكن، يا أختي، كيف أصبح حالنا اليوم؟ لقد تفرّقنا شذر مذر، وتشتّتنا فرقًا وأحزابًا، وصرنا نتقاتل فيما بيننا، وتخلى بعضنا عن بعض، وتُركت الشعوب تُذبحُ على أعتابِ مصالحٍ لا تُدركها النفوس. لقد أضحى ديننا مطيةً لأغراضٍ دنيوية، وفقدنا زاد اليقين الذي كان يُثبت أقدامنا، فحلَّ بنا الوهن، وصرنا غثاءً لا وزن له في ميزان الأمم. إنَّ ضياع هذا الدين القويم من قلوبنا ومن حُكامنا، هو السبب الحقيقيُّ لكلِّ هذا الوجع الذي نعيشُه، ولكلِّ هذا الخذلان الذي ينهشُ فينا الأمل.

أتمنى أن تحمل هذهِ الحمامة إليكِ بعضًا من روح الصبر الذي لم يمُت فينا، وبعضًا من عبق الأمل الذي ما زال يُعشش في أرواحِ المؤمنين. إنَّ هذه الرموز هي شهادة على أنَّنا وإن اختلفنا في الآلام، فإنَّنا نتحدُ في المصير. فلا تيأسي يا غزة، فما زال في الأمّةِ خير، وما زال في القلوب بقية مِنْ إيمان، ويومًا ما ستشرقُ شمس العدل لتُضيءَ أرضنا من جديدٍ، ويعود المجد الذي ضاع إسلاميًّا.

بقلبٍ يأسُوهُ الشوق إلى المجد، وروحٍ لا تيأسُ من فضلِ الله،

الشامُ الشريف، من قلبِ العروبة الجريحة.

(١٧) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

في لهو الخونة وثمن التطبيع

إلى شامنا الشريف، يا قلب العروبة الذي ما زال ينبضُ بالصدق، ويا روح الأمة التي تُقاوم الذوبان؛

سلامٌ من غزة هاشم، ليس سلام مُصابر يرجو المواساة، بل سلام وجع يشهدُ التاريخ على خيانةٍ تُدمي القلب، ويُعرّي واقعًا مُزيَّفًا تعيشهُ الأمّة. لقد أتتني حروفكِ، مُثقلةً بحنينِ المجد الغابر، مُلطّخةً بدمعِ الأسى على ماضينا الذي ضاع بضياعِ ديننا القويم. فما هي إلا صدًى لما يعتملُ في صدري من غضبٍ ومرارة.

يا أختي، لقد حملت حمامتكِ إليّ زيتونًا وياسمينًا ويمنًا، لتُذكريني بمجدٍ كان يومًا يُعانقُ السحاب. ولكن، هل تُدركين يا شام، أنَّ هذا المجد لم يُسرق منا بغفلةٍ، بل بيعَ من قِبَل الخونة بثمنٍ بخس؟ بينما كنا هنا نُصارع الموت، كانت قصورهم تضجُّ بلهوٍ ماجن، وبفجورٍ لا يُشبهُ شرف أُمّة من الأُمم! لقد عاشوا في لهوٍ ومُجونٍ، تاركين خلفهم أوطانًا مسلوبةً تُركت نهبًا للأعداء، وشعوبًا تُذبحُ على أعتابِ طموحاتهم الشخصية.

إنَّ الخيانة يا أختي، لا مُبرر لها. لا تاريخ، ولا جغرافيا، ولا مصلحة تُبيح أن تُباعَ الأرض والعرض، وأن تُسلَّمَ المقدّسات على طبقٍ من ذهبٍ لأعداءٍ لا يرحمون. لقد ظنّوا أنَّ في صمتهم نجاة، وأنَّ في تواطئهم قوة، وما دروا أنهم يُشعلون النار تحتَ أقدامهم، ويُقوّضون بناء أمتهم بأيديهم.

أودُّ أن أُخبركِ يا شام، أنَّ ما ترينهُ من دمارٍ يلحقُ بالعروبةِ، وما تلمسينهُ من وهنٍ يُصيبُ الأمّة الإسلامية، ليس قدرًا محتومًا، بل هو نتاجٌ لخيارٍ بائسٍ اتخذوه، خيار التطبيع مع إسرائيل. نعم يا أختي، إنَّ هذا التطبيع هو سبب دمار العروبة! لقد أُبرمتْ الصفقات في الخفاء، وعُقدت اللقاءات في الظلام، لتُصبح هذه الأمّة في نظرِهم مجرد سوقٍ للبيعِ والشراء!

كيف نُصافحُ قاتلًا؟ كيف نعقدُ سلامًا مع من احتلَّ أرضنا وقتل أبناءنا ودنّسَ مُقدساتنا؟ إنَّ هذا التطبيع لم يجلب لهم أمنًا، بل أزاحَ الستار عن ضعفهم، وكشف عُريهم أمام عدوٍّ لا يُجيدُ إلا لغةَ القوة والعدوان. لقد أضعفوا الأمة، ومزّقوا صفوفها، ووهنوا عزيمتها، وفتحوا الباب على مصراعيه لعدوٍّ لا يعرفُ الرحمة.

ولكن، يا شام، إنَّ غزة هنا تُؤمنُ أنَّ الحقَّ سينتصر، وأنَّ النصرَ وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، وإن طال ليل الخيانة. فهذه الأرض الطاهرة ستبقى صامدةً، تُقاومُ الخيانةَ كما تُقاومُ العدوّ، حتى يشرق فجرُ الحرية، ويُطردَ المحتلُّ، وتُقطع أيادي الخونة.

بقلبٍ يأسُوهُ الغضبُ من الخيانةِ، وروحٍ لا تزالُ تُؤمنُ بالحقِّ،
غزةُ هاشمٍ، من قلبِ الصمودِ الرافضِ للذلِّ.

(١٨) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

فجرُ الإيمان ونصرُ اليقين

إلى غزة هاشم، يا منارةَ الصمود التي لا تخبو، ويا قلب الأمّة الذي ما زال ينبضُ بالحقِّ واليقين؛

سلامٌ مُثقلٌ بالإيمان، وروحٌ تُعانقُ روحكِ، من شامٍ طالَ ليلُها، ولكنها ما زالت تُبصرُ في الأفقِ البعيد نُورَ الفجر. لقد أتتني رسالتكِ، مُلتاعةً بمرارةِ الخذلان ووجعِ التطبيع، وبقبحِ اللهوِ والمجون الذي يُعمي عيون الخونة عن أوطانٍ تُذبح. فما هي إلا صرخةٌ تُشاركنا الألم، وتُوقظُ فينا الإيمان بأنَّ الحقَّ لا يموت، وأنَّ النصر وعدُ الله.

يا أختي، إن كان ليل الخيانة قد طال، وإن تغلغل ظلام الذلِّ في بعضِ النفوس، فإني لأُقسم لكِ بيقينٍ لا يتزعزع، أنَّ الإسلام سيعودُ حتمًا، وسَيشرقُ نورهُ من جديدٍ ليُبدِّدَ كلَّ ظلام حالك. إنَّ هذه الأمّة، وإن وهنت وتفرَّقت، فإنَّ لها ربًّا يحميها، ودستورًا يهديها. إنَّ هذا الدين القويم هو سرُّ قوتنا، ومبعثُ عِزّنا، ومهما ابتعد عنه الحكام الخونة، ومهما تآمر الأعداء، فإنَّ الله مُتمٌّ نورهُ ولو كرهَ الكافرون.

إنَّ النصر لقريبٌ يا غزة، وإن طال ليلُ البلاء. هو ليس وهمًا يُداعبُ الخيال، بل هو وعدٌ إلهيٌّ لا يتخلّف، ونهايةٌ حتميةٌ لكلِّ ظالم. إنَّ دماء شهدائكِ، وصمود أطفالكِ، وصبر نسائكِ، كلُّها تُكتبُ في سجلِّ الخلود، لتُخبرَ الأجيال القادمة أنَّ الحقَّ أقوى من الباطل، وأنَّ الإيمان لا يُهزم.

ويا غزة، يا نبض الأمّة، يا من تُعلّمين العالَمَ أجمع معنى الصمود في وجهِ الحرب الطاحنة، ومعنى الحياة في قلبِ الموت؛ أدعو لكِ بالثباتِ الذي لا يتزعزع، وبالنصرِ الذي لا ريبَ فيهِ، وبقوةِ الإيمان التي تجعلُكِ كالجبلِ الأشمّ في وجهِ العواصف. أُرى فيكِ كلَّ يومٍ معجزاتٍ تتجاوزُ قدرةَ البشر على التصوّر.

ولكن، يُراودني سؤال يا غزة، يُحيّر العقل ويُدهشُ الروح: من أين يستمدُّ أبناؤكِ كلَّ هذا الثبات؟ من أين لهم هذا اليقين الذي لا يُخالطه شكٌّ؟ من أين ينبع هذا الإيمان الراسخ الذي يجعلهم يواجهون الموت بصدورٍ عاريةٍ وقلوبٍ مُطمئنة؟

هل هو سرٌّ أودعَهُ الله في ترابكِ الطاهر؟ أم هو نورٌ من وحيٍ قديمٍ يُشرقُ على قلوبِهم؟ أم هو إرثٌ من أجدادٍ خاضوا معاركًا أشدّ قسوة؟ أجيبيني يا غزة، ففي إجابتكِ شفاء لجراحِ الأمّة، ونورٌ يُضيءُ لنا دروبَ الخلاص.

بقلبٍ يأسُوهُ اليقين، وروحٍ لا تيأسُ من رحمةِ الله،

الشامُ الشريف، من قلبِ الأملِ المتجدد.

(١٩) من غزة هاشم إلى الشام الشريف:

سرُّ الثبات... ووعدُ اللقاءِ عندَ النصر

إلى شام العروبة الأبية، الفيحاء العدية، يا شقيقة الروح في الألمِ والأمل، ويا منارة الوفاء في زمنِ الخذلان؛ سلامٌ مُثقلٌ بالشكر والعرفان، وروحٌ تُعانقُ روحكِ، من غزة هاشم التي ما زالت تُصارعُ لأجلِ فجرٍ قادم. لقد أتتني رسالتكِ، مُتخمة بصدقِ الإيمان ويقين النصر، فما هي إلا بلسمٌ ضمّد بعضًا من جراحنا الغائرة، ونورٌ أضاء لنا دروب الأمل في ليلٍ طال ظلامُه.

لقد سألتِ يا شام، عن سرِّ هذا الثبات، وعن مَصدرِ هذا اليقين والإيمان الذي يجعلُ أبناءَ غزةَ يُواجهونَ الموتَ بصدورٍ عاريةٍ وقلوبٍ مُطمئنة. أُجيبكِ يا أختي، بأنَّهُ سِرٌّ لا يُمكِنُ أن يُشرحَ بكلماتٍ معدودة، ولا أن يُفهمَ بعقولٍ لم تذق مرارةَ الابتلاء. إنَّهُ إيمانٌ راسخٌ بأنَّ الله معنا، وأنَّهُ ناصرُ المستضعفينَ منا، وجابر القلوب المكسورة. يقينٌ بأنَّ هذه الأرض الطاهرة ليست مجرد ترابٍ، بل هي وديعةٌ إلهيّة، وأنَّ الدفاعَ عنها هو عبادةٌ وجهاد.

إنَّ سرَّ ثباتنا يا شام، يكمن في صرخاتِ الأطفال الذين رأوا الموت بأعينهم وما زالوا يضحكون، وفي دعاءِ الأمهات اللاتي فقدنَ فلذات أكبادهنَّ وما زلنَ يُؤمننَ بأنَّ الله لن يُضيعَ دماءَ أبنائهنَّ. هو إرثٌ من أجدادٍ علّمونا أنَّ الكرامةَ لا تُساوم عليها، وأنَّ الحقَّ لا يموت. نحنُ هنا لا نُقاتلُ من أجلِ أرضٍ فحسب، بل من

أجلِ كرامةِ أمّة، من أجلِ مقدّسات تُدنّسُ والعالَمَ أجمع يتفرّجُ ضاحِكًا، ومن أجلِ عودة دينٍ قويمٍ أضحى غريبًا.

شكرًا لكِ يا شام العدية، على رسائلكِ البهية، والتي كانت بالنسبةِ لي كـ"نورٍ على نور" في ظلمةِ المِحن. كانت حروفكِ النيّرة تُعانقُ روحي، وتُشاركني الوجع بصدقٍ وتفاني، وتُجدد فيّ الأمل. قد كانت كلماتكِ خير بلسَمٍ ضمّد بعضًا من جراحي، وأعادت إليّ بعضًا من روحِ الحياة التي كادت أن تُفارقني.

والآنَ، أودِّعكِ يا أختي، على أملٍ يُلامسُ شغافَ الروح، ورجاءٍ يُجدّدُ ملامحَ المستقبل. أملي أن أكتُبَ إليكِ المزيد من الرسائِل في المستقبلِ القريب، لا عن دمارٍ وخراب، ولا عن خذلانٍ ووجع، بل لأُبشّركِ بأنّ غزة هاشم قد انتصرتْ، وأنها قد تحررتْ من قيودِ الظلم والحرب. لأُحدثكِ عن أطفالٍ يركضونَ في شوارعٍ آمنة، وعن أزهارٍ تُزهرُ في كلِّ مكان، وعن ضوءٍ يُشرقُ من كلِّ النوافذ المطلّة على مشاتِلِ الزيتون وأزهار البنفَسجِ الحُرّ.

حتى ذلك الحين، كوني بخيرٍ يا شام، وكوني أبيةً كما عرفتكِ. إنَّ النصرَ لنا قادمٌ، والله غالبٌ على أمره، ولو كره الكافرون.

بقلبٍ مُمتنٍّ، وروحٍ لا تيأسُ من رَوح الله،

غزةُ هاشمٍ، من قلبِ الصمودِ المنتصرِ بإذنِ الله.

(٢٠) من الشام الشريف إلى غزة هاشم:

شكرُ الصمود ووعدُ الفجر القادِم

إلى غـزة هاشـم، يا قِبلـةَ الصـابرين، ويا قُبلـة العاشـقين، ويا منـارة الحـقّ الـتي لا تنطفـئ، ويا تـوأم الـروح في دربِ الجـراح والأمـل؛ سـلامٌ مُثقـلٌ بالشـكر والامتنـان، وروحٌ تُعـانقُ روحـكِ، مـن شـامٍ تتـوقُ إلى فجـرِ النصـرِ الـذي تُبشّـرينَ بـهِ. لقـد أتتـني حروفـكِ الأخـيرة، مُفعمـةً باليقـين، مُضـيئةً بسـرِّ ثباتـكِ الأبـديّ، فمـا هـي إلا خاتمـة بهيـة لرسـائلنا المتبادلـة، والـتي قـد أزاحـت عـن كاهلِنـا بعضًـا مـن همومنـا، وبعثـت فينـا روحًا جديدةً من الأمل.

شـكرًا لـكِ يا غـزة، شـكرًا لصـمودكِ الأسـطوريّ الـذي يُحيـي فينـا معـاني العـزّ والإباء. شـكرًا لصـبركِ الـذي يُعلِّـمُ العـالَمَ أجمـع أنَّ الإيمـان أقـوى مـن كـلِّ أسـلحة الـدمار، وأنَّ الـروح لا تُقهـر مهمـا اشـتدت عليهـا رياح الظلـم. شـكرًا لـدعائكِ الـذي يمتـدُّ مـن ترابـكِ الطـاهرِ ليُعـانقَ سمـوات الحـقّ، ويُزلـزلَ عـروشَ الظـالمين. أنـتِ لم تكـوني مجـرد أرضٍ تُقـاوم خيانـة القريـب وفتـك الغريـب، بـل كنـتِ روحًـا تُلهمُنـا، ونبضًـا يُـذكّرنا بأنَّ الحقَّ لا يموت.

لقـد حملـتْ رسـائلكِ إلينـا، وإلى كـلِّ قلـبٍ ينـبضُ بالعروبـةِ والإسـلام، صـدًى لجـراحٍ عميقـة، ولألمٍ لا يلتـئم. لقـد كشـفتِ لنـا عُـريَ هـذا العـالم، وخـذلان القريـب والبعيـد، ولكـن في كـلِّ حـرفٍ مـن حروفـكِ كـانَ ثمّـةَ نـورٌ يُبـدِّد الظـلام، وصـوتٌ يُنـادي بأنَّ العزةَ لا تُستجدى، بل تُنتزَع.

وها أنا الآنَ، أرفعُ كفيَّ إلى السماء، وقلبي يُرددُ معكِ ومع كلِّ حرٍّ في هذهِ الأمة: اللهمَّ يا من لا يخفى عنهُ مثقال ذرةٍ في السمواتِ ولا في الأرض، يا من بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ، نسألكَ باسمكَ الأعظم، وبوجهكَ الأكرم، أن تُثبّتَ أقدام غزة، وأن تُنزل عليها سكينتكَ، وأن تُعلي رايتها، وأن تُعلي شأنها وشأن الأمّة كلّها. اللهمَّ انصر الإسلامَ والمسلمين، وأعزَّ دينكَ، وأظهر كلمتكَ، واجعل هذا الدينَ القويمَ هو أساس عزّنا ومجدنا. اللهمَّ رُدَّ لهذهِ الأمّة مجدها التليد، واجمع شتاتها، ووحّد صفوفها، واجعلها أُمّةً عزيزة قوية، تُعلي كلمةَ الحقّ، وتُقيمُ العدلَ في الأرض. اللهمَّ اجعل هذا الصمود الأبديَّ في غزة، هو بداية فجرٍ جديدٍ يُشرقُ على أُمّتنا، ويُزيلُ غياهب الظلم والخذلان. اللهمَّ عجّل بالنصرِ الذي وعدتَ بهِ عبادكَ الصابرين، واجعلنا من الشاهدينَ على تحريرِ غزة وفلسطين، وكلّ أرضٍ مُحتلة، وعلى عودةِ المجد لأمّتنا العربية والإسلامية.

يا غزة، قد كانت هذه الرسائِل حوار أرواحٍ لا تُقيّدها الحدود، وصرخةَ أملٍ لا تُسكتُها المدافع. كوني على يقينٍ أنّنا سنلتقي يومًا ما، ليس في عالمِ الأبجديّة والحروف، بل على أرضٍ حُرة، وتحت سماءٍ صافيةٍ، تُظلّلنا راياتُ النصر فيها.

بقلبٍ مُمتنٍّ، وروحٍ تُؤمنُ بيقينِ النصر القريب،

الشامُ الشريف، من قلبِ الأمةِ التي تتوقُ إلى فجرِ المجد.

الفهرس

حبر الدموع وزفرات الوجع 2

دمعةُ الشام وعبقُ الياسمين 4

يا توأم الروح والجرح 6

بين الحنين وأنين الروح 8

في فلسفةِ الصبر وصرخةِ الوجدان 10

أسرار الأرض وشموخ الروح 12

في أحشاءِ الألم وصراخ البقاء 14

في حكمةِ الابتلاء ويقينِ النصر 16

عُري الرُّوح وتمزُّق الهُوية 18

بين وحشةِ الزنازين وصراخ الجلاد 20

في مرارةِ الخذلان ووحدةِ الميدان 22

من جرح غزة إلى جرح صنعاء الذبيحة 24

بغدادُ الجريحة... صدى ألمِنا المشترك 26

من نيلِ السودان إلى أرز لبنان... وجعٌ مُشترك 28

في محنةِ الروح ووجع العروبة 30

أجنحةُ السلام وذكرى المجد الغابر 32

في لهو الخونة وثمن التطبيع 34

فجرُ الإيمان ونصرُ اليقين 36

سرُّ الثبات... ووعدُ اللقاءِ عندَ النصر 38

شكرُ الصمود ووعدُ الفجر القادِم 40

أسنّة الضياء